جلال الدين الرومي وتجربته الصوفية

د.إبراهيم منّاد
جامعة مستغانم

ملخّص:

يُعدّ جلال الدين الرومي البلخي ممّن اعتصروا المعارف الإنسانية في سبيل كشف المجهول، هذا لأنّ النصّ القرآنيّ هو محور حياته أفعالاً وأقوالاً وسُبُلاً. فمن القرآن الكريم استمدّ الشاعر والفقيه والفيلسوف والصوفي طرائقه الفكرية وتوجّهاته الإنسانية ومبتغياته الروحية.

ثمّ إذا ما انتقلنا إلى الحديث النبويّ الشريف وجدناه على غرار ما حصل في الكثير من الدراسات متأثّراً أيّما تأثّر به، بل بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم نفسه اقتداءً به، ومضامين الأحاديث النبويّة مجسّدة في أقواله وآرائه.

أضف إلى ذلك ما للتاريخ الإسلاميّ الحافل من وقع وأثر في سيرته بأجملها من حيث كونه؛ إمّا شاعراً أو فقيهاً أووليّاً أو صوفياً.

مفهوم التصوّف:

يُروى أنّ مصطلح وتسمية التصوّف «معروف في الملّة الإسلامية في قبل ذلك (أي قبل الإسلام)، بل يذهب بعضهم إلى أنّه لفظ جاهليّ عرفته العرب قبل ظهور الإسلام».

إنّ التصوّف موضوع متّصل بالأمّة الإسلامية جمعاء، وهو موضوع ذو صلة وثيقة بالدين والعقيدة وما يتّصل بهما. والتصوّف له أصل موضوع في التراث المعجمي العربي من الجذر(ص و ف)، ومن معانيه(1): أخذ الشيء قهراً؛فهو حمل النفس وجذبها إلى المولى عزّ وجلّ لتصير خاضعةً لطاعته. ومن دلالاته أيضا: العطاء دون أخذ المقابل. ومن المعاني القريبة، الابتعاد عمّا هو ضارّ، والانقطاع لعبادة الله تعالى. وهو الالتزام بالصفات الحميدة التي أوردتها الأديان في رسالاتها. والأخذ بالحقائق واليأس ممّا في أيدي الخلائق. وهو أيضا دوام العمل للوصول إلى الحقّ على حال لا يعلمها إلاّ الحقّ. ومعناه أيضا أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء. كما يعدّ تركَ كلّ حظّ النفس.

وهو بذلك يعدّ: إخلاصاً لله عقيدةً وعبادةً، وقهراً للرغبات، وميلاً عن الشهوات. والتصوّف في النهاية:»علم ومعرفة وسلوك

يقرّب الإنسان إلى الله تعالى»(2) ؛ لأنّ الصوفي أن يختصّه الله تعالى بالصفاء، فمن اصطفي من كلّ ما سوى الله فهو الصوفي(أبو القاسم الجنيد)، لذلك كانت قلوب الصوفية:»واعية لأنّهم زهدوا في الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى، فبالتقوى زكت نفوسهم، وبالزهد صفت قلوبهم»(3)

جلال الدين الرومي البلخي:(4)

هو محمّد جلال الدين محمّد بن محمّد البلخي القونوي، المعروف بالرومي، المولود سنة 604هـ في بَلْخ، والمتوفَّى سنة 672هـ بــقونية.

ويُروَى أنّه لم يكن مشهوراً بلفظ مولانا إلاّ بعد وفاته، حتّى صار فيما بعد إذا قيل مولانا يُعلَم مباشرة أنّ المقصود هو جلال الدين الرومي. يضاف إلى ذلك نعتهم له بالمولوي، ودليل ذلك الطريقة المعروفة بالمولوية نسبةً إليه.

مؤلّفاته:(5)

له مجموعة من المؤلّفات، لعلّ أبرزها وأشهرها ما يلي:

1- المثنوي: وهو أشهر ما خلّف جلال الدين الرومي، وتسمية هذا المؤلّف في أدب الفرس يعني النظم الذي نراعي فيه توحيد

القافية بين الشطرين في كلّ بيت. وهو كتاب مؤلّف من ستّة مجلّدات، وكان من أسباب تأليفه شغف هذا الرجل الصوفي بالمسائل الكلامية والفقهية.

2- فيه ما فيه: وهو بخلاف المؤلّف السابق؛ كانت موضوعاته سهلةً ميسورةً لعامّة الناس، بعيداً عن الصعوبة ولا يحتاج المطّلع عليه إلى شرح أو تبسيط.

3- وهناك كتب أخرى أقلّ أهميةً ممّا ذكرناه، ومنها:

أ/ المجالس السبعة، وهو عبارة عن مواعظ وخطب أثناء التدريس.

ب/ ديوان شمس تبريز، وهو غزليات صوفية بلغت **3500** ثلاثة آلاف وخمسمائة بيت تقريباً.

جـ/ الرباعيات، ومجموعها **1695**ألف وستمائة وخمس وتسعون رباعيةً، وعدد أبياته **3318**ثلاثة آلاف وثلاثة مائة وثمانية عشر بيتاً.

تجربته الصوفية:

تكاد تنحصر تجربة جلال الدين الرومي الصوفية(6) في مجموعة من الموضوعات لا يختلف فيها مجموعة من الناس، يمكن أن نوردها فيما يلي:

- المعرفة: لأنّها سبيل التوسّل إلى التوحيد الحقيقي الصافي الذي لا يختلط معه الشكّ، ولا يعتريه التردّد.

- الفناء الصوفي، أو الخلود بعد الانقضاء: إذ معنى ذلك التجرّد عن صفات خاصّة إلى طريق الفناء في الصفات الإلهية، بل أبعد من ذلك، لبس هذه الصفات ومحاولة البقاء فيها، لأنّها طريق الصوفي الحقيقية. يقول فريد الدين العطّار:»أفنيت نفسي منذ زمن بعيد، فإن أحيا من بعد فذلك وجود آخر، أنا فارغ من عالم الوجود والعدم، أنا اليوم باقٍ وراء هذا وذاك«(7). ومن ثمّة كان إدراك الكمال الصوفي الذي يتمثّل في البقاء بعد الفناء. ويقول جلال الدين في الحنين إلى شيخه شمس تبريز وفي التعلّق به:

حين شمس الدين في فكري ظهر

غاب نور الشمس عنه واستتر

يفرض الإحسان أن أذكره

في أغاريدي وأن أشـــــكره

إنّ أعواماً قد تقضّت في حماه

حقّها، تخلد في سفر الحياه

جئت أحكي قصة الوصل العجيب

كيف أفناني بالوصل الحبيب

- السماع: وهو من الأولويات الضرورية للسالك والمريد؛ لأنّ بالسماع يدرك الصوفي ما لا يتأتّى لغيره من الناس، ومن يطالع مؤلّفاته سيلاحظ ذلك جليّاً وواضحاً.

- كتم الأسرار وعدم البوح بها: لأنّ عامّة الناس يقعون في الحيرة والتردّد لعدم معرفتهم الحقائق على طبيعتها، يقول:»لا تنقل قدمك من مكان سكرك، وضع رأسك في المكان الذي شربت منه«(8).

- ملامسة نور القلب؛ لأنّه البصيرة المنيرة، فنور القلب أهمّ لدى الصوفي من باقي الأنوار الحسّيّة.

- الدفاع عن أهل الشطح من الصوفية فيما يعرض لهم من حالات مختلفة، والدليل على ذلك ما أورده في أشهر مؤلّفاته قوله:»إنّ للعشّاق احتراقاً في كلّ لحظة،...وأنّ دين العشق قد انفصل عن كافة الأديان، فمذهب العشّاق وملّتهم هو الله«(9). ويقول في موضع آخر عن الصوفية:»إنّ هؤلاء يرون ما لا يراه غيرهم«(10).

جلال الدين الرومي الصوفي والمرأة:

احتلّت الأنثى حيّزاً من أقوال البلخي نظراً لمكانتها في المجتمع، وما يتّصل بها من عدل ومساواة وحبّ وظلم وغير ذلك؛ يقول:(11) « قال الرسول: إنّ النساء يغلبن العقلاء وأصحاب القلوب، أمّا الجهلاء فإنّهم يغلبون المرأة، لأنّ حدّة الحيوان قد احتبست فيهم.إنّهم خالون من الرقّة واللطف

والوداد، لأنّ الحيوانية غالبة على طبيعتهم. فالمحبّة والرقّة هما صفة الإنسانية، وأمّا الغضب والشهوة فهما صفة الحيوانية. فيا أيّها الذي يحفر بئراً من الظلم، إنّك لتنصب لنفسك شركاً:

فلا تجعل نسيجك حول نفسك، كما تفعل دودة الحرير !، إنّك تحفر البئر لنفسك فاحفرها بقدر ! ولا تكن موقناً أنّ الضعفاء لا معين لهم. واتل من القرآن(إذا جاء نصر الله والفتح)(12)، فلو أنّك كنت فيلاً يهرب منك خصمك، فجزاؤك مذكور في قوله تعالى(وأنزل عليهم طيراً أبابيل)(13)، ولو طلب الأمان ضعيف من أهل الأرض لهبّ لنجدته جيش السماء».

جلال الدين الرومي وعلم الكلام:

إنّ نظرة الأوربيّين وغير المسلمين إلى الإسلام على أنّه دين يقيّد الحرّيات الفكرية تعدّ بمثابة بعد وجفاء عن الحقيقة لا شكّ في ذلك، إضافةً إلى أنّ هناك من اعتقدوا أنّ الدين الإسلامي عمد إلى محاربة الفلسفة ومنع التأمّل والنظر وإعمال الفكر والعقل كما ادّعى ارنست رينان.

قال تعالى:(هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجرفيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كلّ الثمرات إنّ ذلك لآيةً لقوم يتفكّرون

وسخّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مُسخَّراتٌ بأمره إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون)(14).

وسبق أن أشرنا فيما سبق إلى نور المعرفة، وبها يكون الصوفية غير محتاجين إلى الاستدلال والنظر لأنّهما يحجبان الوصول إلى حقائق يقينية؛ لأنّ نور المعرفة أو الرؤية الحضورية على حدّ تعبيرهم هي التي يولونها اهتماماً بالغاً، وذلك يتبدّى في جعلهم التصوّف: علم ومعرفة وعمل وعبادة، وكلّ علم يعرف به الإنسان خالقه يكون من سبل التصوّف، والعلم النورانيّ يوصل إلى المعرفة والحقيقة، حقيقة وجود الله ووحدانيته(15).

ومن هذا المنطلق، هل يمكن أن نقول إنّ لجلال الدين الرومي مدرسةً فكريةً؟ !

سنشير ههنا إلى أمرين ممّا يوحي باهتماماته الفلسفية المتعلّقة بالمنطق وإعمال الفكر، وهما:

الأمر الأوّل:

الخلاف الفكري في العالم الإسلامي لم يكن متوقّفا في أيّ عصر، بل إنّ هذا الاختلاف تبدّى أثره على الباحثين في كلّ

قطر من البلاد العربية والإسلامية، وجلال الدين الرومي الصوفي كانت له عُدّة سابقة فيما يخصّ الآراء المتعلّقة بالعقيدة قبل أن يعمد إلى تدريس التراث الكلاميّ والفلسفيّ.

ومن آرائه التي تمتّ بصلة إلى الفلسفة أنّه كان يؤمن بحدوث العالم، ويردّ من قال بقدمه؛ إذ القديم بالزمان يمكن أن يكون حادثاً، وأنّ القول بقدم العالم عند الفلاسفة المسلمين هو راجع إلى القدم الزمانيّ، لا القدم الذاتيّ، يقول:«إنّ الحدوث من أهمّ خصوصيات الممكن، فمن الواجب علينا ألاّ نأخذ بما كان يأخذ به بعض الموجّهين لأقوال الفلاسفة من جعل القدم قدماً زمانياً، إذ يوهم ما يضادّ الحدوث، وليس من حقّ الممكن الحادث أن ينسب إلى القدم ولو بشيء يوهم القدم»(**16**).

الأمر الثاني:

وهذا الجانب نراه أساسياً في تصوّف الرجل، وهو جعله الشريعة معياراً للأخذ بآراء الفلاسفة وأقوالهم، ومثال ذلك تقسيم الفلاسفة الشيء(بالجوهر والعَرَض)، والعَرَض (إلى الكمّ والكيف والأين ومتى، والوضع والفعل والانفعال وغير ذلك) من المقولات الفلسفية. لكنّ البلخي جانَبَ هذه

التقسيمات؛ إذ لا مبرّر يدعو إليها. وبالتالي كان متحرّراً عن أقوال الفلسفة وغير مقلّد لهم.

فالقرآن الكريم والحديث النبويّ الشريف؛ أي الشريعة كانت مبدأً أساسياً لتفكير المسلم عامّةً، وفي هذا يقول:»نحن أهل القرآن وبأيدينا دلائل تنبع عن المنابع الموثوق بها، ولسنا محتاجين إلى ما يوقعنا في الحيرة والتردّد، فكلّ ما جاء عن طريق المنابع الأصلية نقبله، وكلّ ما نبع عن المنابع الفكرية المنسوبة إلى أهل الفكر فعلينا أن نطبّقه على الشريعة؛ إن قبلته قبلناه، وإن ردّته ألقيناه وراء ظهورنا«(17)

ونشير إلى أنّ جلال الدين الرومي في اهتمامه بالقضايا الفلسفية تلقّى طعناً في آرائه، كما أُتُّهِم أبو حنيفة من قيل في دراسته للفلسفة حتّى قيل عنه:إنّه يقول إنّ لله ماهيةً، وإنّه استخدم مصطلحات الفلسفة في القضايا العقيدية(18)، ثمّ إنّ الآيات:

ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام(19)
كلّ شيء هالك إلاّ وجهه(20)
ليس كمثله شيء وهو السميع البصير(21)

فهذه الآيات المتشابهات وغيرها عند أهل السنّة وقع حولها ما وقع، إلى جانب الآراء الاعتزالية التي شاعت في عصر جلال الدين الرومي، وعلى رأسها إنكار الصفات؛ لأنّ الصفات أعراض لا تقوم إلاّ بالجسم، فمن أثبت الصفات فقد أثبت الجسمية ودلائل أخرى، أمّا من أثبتوا الصفات فرأوا أنّها لا توجب الجسمية، وقالوا بأنّها لا عين ولا غير.

أضف إلى ذلك ما أُشِيع من آراء الكرامية المنسوبة إلى محمّد بن كرّام(ت255هـ) التي نمت بشكل واضح بخراسان موطن جلال الدين الرومي، وكانت تدعو الناس إلى القول بالتجسيم.

كلّ هذا وذاك جعل الرجل يتّكئ على الرؤى الكلامية واستثمارها لتتأتّى وتتبدّى الآراء الصافية المتّصلة بالقرآن الكريم والسنّة النبويّة وأقوال الأئمّة الأربعة.

وقد ورد عنه أنّه انتقد آراءً فلسفيةً في أواخر حياته، قال تعالى:(ويتفكّرون في خلق السموات والأرض)، فالاعتماد على العقل واجب أثبته الله سبحانه في تنزيله، لأنّ العقل له أثر في السلوك؛

قال تعالى:(أفلا تعقلون). أمّا تعقّل الفلاسفة فمحدود ومرحلة لا تصل إلى ما يصل إليه الإدراك النوريّ والسلوك الصوفيّ.

نماذج من أقواله:

وبرغم أنّ أنطالية دافئة، فإنّ أغلبية الناس هناك من الروم الذين لا يفهمون لغتنا، برغم أنّه بين الروميّين من يفهمها أيضاً. كنت أتكلّم في يوم من الأيّام في جماعة، وكان بينهم أيضاً جماعة من الكفّار، وفي وسط كلامي بدؤوا بالبكاء والتعبير عن الذوق والحال التي ألّمت بهم.

سأل أحدهم: وماذا يفهمون وماذا يعرفون؟ إنّ مسلماً واحداً فقط من ألف مسلم يفهم هذا الجنس من الكلام. فماذا فهموا هم حتّى بكوا؟

أجاب: ليس لزاماً أن يفهموا روح هذه الكلمات، والأصل هو هذه الكلمات نفسها، وهم يفهمونها، وبعد كلّ شيء، كلّ إنسان يقرّ بوحدانية الله، وبأنّه الخالق والرازق، وأنّه المتصرّف في كلّ شيء، وأنّ مآل كلّ شيء إليه، وأنّ العقاب والعفو منه، عندما يسمع أيّ إنسان هذه الكلمات، التي هي وصف للحقّ وذكر له، يحصل اضطراب وشوق وذوق، لأنّه من هذه الكلمات يأتي عبير معشوقه ومطلوبه».

ويقول:

أقول ما في خاطري لا بدّ أن أفعله، تقول: مُتْ

أقول إنّ زيت قنديلي قد صار ماءً. تقول: مُتْ

أقول إنّي كفراشة أحترق

إلى شمعة وجهك. فتقول: مُتْ

ويقول أيضا:

لا أحد قانط منك

ينشر النور من يتلقّ نوراً

ليس للأسرار أن تذاع

ممّن يؤتِمن

ويقول أيضا:

مذ رأى السلطان عجز الحكماء

واندحار الطبّ في وصف الدواء

خلع التاج ونحـــــــو المسجـد

حافـــيا سار بقـــــــــلب مكمّد

قصد المحراب في قلب حزيـــن

ساجدا لله ربّ العالمــــــــــين

خاتمة:

هذه مجموعة من المعارف المرتبطة بعلم أعجمي، اتّصلت سيرته بالتراث العربي والإسلامي، وهو أحد أقطاب المتصوّفة بحقّ، وآثاره شاهدة على ذلك. فقد تكوّن الرجل تكوينا دينيا عاليا أهّله إلى البحث والحديث عن الكثير من القضايا والظواهر المرتبطة بالفرد وعلاقته بمجتمعه أوّلا، ثمّ علاقة الفرد بربّه. فكانت بذلك تجربته رائدة في مجال التصوّف.

الهوامش:

(1) القاموس المحيط، الفيروزآبادي،مادة(صوف).

(2) التصوف، ماسينيون

(3) جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماء الكلام، عناية الله إبلاغ الأفغاني، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، 1407هـ،1987م،ص37.

(4) المرجع نفسه،ص37ـ38.

(5) عوارف العوارف ملحق بكتاب الإحياء للغزالي، للسهروردي،القاهرة ، المكتبة التجارية،دط.

(6) جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماء الكلام، ص115ـ116.

(7) منطق الطير، العطّار،ص168.

(8) المثنوي الدفتر الثاني

(**9**) المصدر نفسه،

(**10**) كتاب فيه ما فيه، لجلال الدين الرومي، ترجمة عيسى علي العاكوب،دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان ـ دار الفكر، دمشق، سورية،**2001**م،ص**52**.

(**11**) جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماء الكلام،ص**117**.

(**12**) جلال الدين الرومي، مصطفى غالب،مؤسّسة عزّ الدين للطباعة والنشر، **1402**هـ ـ**1982**م،ص**43**.

(**13**) سورة النحل، الآيات:**10ـ12**.

(**14**) الآية

(**15**) جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماء الكلام،ص**245ـ246**.

(**16**)

(**17**) جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماء الكلام،ص**251**.

(**18**) الرجع نفسه،ص**252**.

(**19**) سورة الرحمان،الآية**27**.

(**20**) سورة القصص،الآية**88**.

(**21**) سورة الشورى،الآية**11**.

(**22**)كتاب فيه ما فيه،ص**152**.

(**23**)الرباعيات،ص**58**.

(**24**)الرباعيات،ص**49**.

(**25**)حكايات وعبر المثنوي،ص**19ـ20**.

